﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٨١﴾ [آل عمران: 81]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين عهد الله للنّبيّين، وما كان من اليهود من قُبح القول والفعل

لَمَّا حكى الله تعالى عن أهل الكتابِ قبائحَ أقوالهم وأفعالهم، وكان ممَّا ذَكَرَ من قبائحهم اشتِرَاءَهم بآيات الله ثمنًا قليلًا، وذكر ما يترتّب على ما يَؤولُ أمرُهم إليه في الآخرة، وبيَّن أنّ منهم مَن بدَّلَ في كتابه وغَيَّرَ وَصفَ رسول الله ﷺ، فجاءت هذه الآية لتُقِيمَ الحجَّةَ على أهل الكتاب وغيرهم ممّن أنكر نُبُوَّتَهُ ودينَهُ، فذكر أخذَ الميثاق على أنبيائهم بالإيمان برسول الله ﷺ، والتَّصديق له، والقيام بنُصرَته، وإقرارهم بذلك، وشهادَتهم على أنفسهم، وشهادته تعالى عليهم بذلك، وهذا العهدُ مذكورٌ في كُتُبهم، وشاهدٌ بذلك أنبياؤُهم[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَخَذَ﴾: الأصلُ فيه حَوزُ الشَّيءِ وجَبيُهُ وجَمعُهُ، تَقولُ: أَخَذتُ الشَّيءَ آخُذُهُ أخذًا، وهو خلاف العطاء، وهو التَّناول[2].

2) ﴿مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾: الميثاقُ: العَهدُ، والجمعُ المواثيقُ على الأصل، والمَوثِقُ: الميثاقُ. والمواثَقَةُ: المُعاهدةُ. ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ﴾ [المائدة: 7]. وأوثَقَهُ في الوَثاق، أي: شدَّهُ[3].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/235.
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (أخذ).
(3) الخليل، العين، وابن عبّاد، المحيط، والجوهريّ، الصّحاح: (وثق).

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، أي: أخذ العهد عليهم بأن يؤمنوا بمحمّد ﷺ، وأخذ العهد بمعنى الاستحلاف. وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: 66]، أي: ميثاقا، جمعه مواثيق على الأصل، ومياثيق على اللّفظ، ومياثق في ضرورة الشّعر. وأنشد الفرّاء لعيّاض بن درّة الطّائي:

حِمًى لَا يَحِلُّ الدَّهْرَ إِلَّا بِإِذْنِنَا وَلَا نَسْأَلُ الْأَقْوَامَ عَقْدَ الْمَيَاثِقِ[1].

وأمّا لفظ ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، فجمع (نبي) والنبي مأخوذ من العُلُوّ؛ لشرفه، فالنَّبيّ أرفعُ خَلقِ الله. والنَّبيُّ بغير الهمز أبلغُ من النَّبِيء بالهمز؛ لأنَّه ليس كلّ مُنَبَّإ رفيعَ القَدر والمحلِّ[2].

3) ﴿ءَاتَيْتُكُم﴾: الإيتاءُ: الإعطاء. آتَى يؤتي إيتَاءً وآتاهُ إيتاءً، أي: أعطاه. ويُقالُ: لفلانٍ أَتْوٌ، أي: عَطاء. وآتَاه الشَّيء، أي: أعطاه إيَّاه. وفي التَّنزيل العزيز: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ [النّمل: 23]؛ أراد وأُوتيَت مِن كلِّ شَيءٍ شَيئًا[3]، "وفي الكشّاف: اشتهر الإيتاء في معنى الإعطاء، وأصله الإحضار، وقال شيخنا: وذكر الرّاغب أنّ الإيتاء مخصوص بدفع الصّدقة؛ قال: وليس كذلك، فقد ورد في غيره: كـ ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ﴾ [مريم: 12]، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الصافات: 117]، إلّا أن يكون قصد المصدر فقط"[4].

4) ﴿كِتَٰبٍ﴾: الكَتبُ: ضمُّ أديمٍ إلى أديمٍ بالخياطة، يُقال: كَتَبتُ السِّقاء، وفي التَّعارفِ ضمُّ الحروف بعضها إلى بعض بالخطِّ، وقد يُقالُ ذلك للمَضمُوم بعضها إلى بعضٍ باللَّفظ، فالأصلُ في الكتابة النَّظم بالخطّ، لكنْ يُستعارُ كلُّ واحد للآخر، والكتاب في الأصل مصدرٌ، ثمّ سُمِّي المكتوب فيه كتابًا، ويكون اسمًا للصّحيفة مع المكتوب فيه، قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [النّساء: 153]، فإنَّه يعني صحيفةً فيها كتابةٌ[5].

5) ﴿وَحِكْمَةٍ﴾: الحُكمُ المَنعُ مِنَ الظُّلم. وسُمِّيَت حَكَمَةُ الدَّابَّة؛ لأنّها تَمنعُها، يُقالُ: حَكَمتُ الدَّابَّة وأحكَمتُها. ويُقالُ: حَكَمتُ السَّفِيهَ وأحكَمتُهُ، إذا أَخَذتَ على يديهِ. والحكمةُ

(1) الزَّبيديّ، : تاج العروس: (وثق).
(2) الرّاغب، المفردات: (نبي)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نبو).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (أتي).
(4) الزَّبيدي، تاج العروس: (أتى).
(5) الرّاغب، المفردات: (كتب).

هذا قياسُها، لأنّها تَمنَعُ مِنَ الجهل. وتقولُ: حَكَّمتُ فلانًا تَحكيمًا منعتُهُ عمَّا يُريد[1]..

والحِكمة: إصابة الحقّ بالعلم والعقل

6) ﴿جَآءَكُمْ رَسُولٌ﴾: جاءَ يَجيءُ ومَجيئًا، والمجيءُ كالإتيان، لكنِ المجيءُ أعمُّ؛ لأنَّ الإتيانَ مجيءٌ بسهولة، والمَجيءُ يُقال اعتبارًا بالحُصُول، ويُقال: جاءَ في الأعيان والمعاني، ولمَا يكون مجيئُه بذاته وبأمره، ولمَن قصد مكانًا أو عملًا أو زمانًا، قال اللّه ﷻ: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ [يس: 20][2]، وقوله ﴿رَسُولٌ﴾: أصل الرِّسْلِ: الانبعاث على التُّؤدة، ويُقال ناقة رِسْلَةٌ: سهلة السَّير، وإبلٌ مراسيل: مُنبعثةً انبعاثًا سهلًا، ومنه الرَّسُولُ المُنبعِث، وتُصُوِّرَ منه تارةً الرِّفق، فقيل: على رِسلك، إذا أمرته بالرّفق، وتارةً الانبعاثُ فاشتُقّ منه الرّسول. وجمع الرّسول رُسُلٌ. ورُسُلُ اللّه تارةً يُراد بها الملائكة، وتارةً يُراد بها الأنبياء[3]، والرّسول: بمعنى الرّسالة، يؤنّث ويذكّر، وتذكيره معلوم على نحو اللّفظ المشروح، وهو الرّسالة والمرسل، على نحو قول كثيّر عزّة:

لَقَدْ كَذَبَ الوَاشُونَ مَا بُحْتُ عِنْدَهُمْ بِسِرٍّ، وَلَا أَرْسَلْتُهُمْ برَسُولِ[4]

7) ﴿مُصَدِّقٌ﴾: الصِّدق: نَقيضُ الكذبِ، صَدَقَ يَصدُقُ صَدقًا وصِدقًا وتَصداقًا. صَدَّقَهُ: قَبِل قَولَه. وصدَقَه الحَديثَ: أَنبأَه بالصِّدق؛ قال الأعشى:

.....*** فصدَقتُها وكَذَبتُها والمَرءُ يَنفَعُه كِذابُهْ[5]

ورجلٌ صَدُوقٌ: أبلغُ مِنَ الصَّادق، والصِّدِّيقُ: المُصَدِّقُ. وفي التَّنزيل: ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة: 75]، أي: مُبالغةٌ في الصِّدق والتَّصديق على النَّسَب، أي: ذَاتُ تَصديق[6].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حكم).

(2) الرّاغب، المفردات: (جاء).

(3) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (رسل).

(4) ابن منظور، لسان العرب: (رسل).

(5) البيت منسوب إلى الأعشى، وقد وردت في الدّيوان قصيدة بنفس الوزن والرويّ، ولكن لا يوجد فيها البيت، وهي في مدح رجل من كندة، اسمه ربعة بن حيوة، ومطلعها:

أَضَرَمْتَ حَبْلَكَ مِنْ لَمِـ *** سَ الْيَوْمَ أَمْ طَالَ اجْتِنَابُهْ

والبيت مذكور في شرح ديوان المتنبي للعكبريّ: 1/3، وفي تحسين القبيح وتقبيح الحسن لأبي منصور الثّعالبيّ، ص: 23، وفي تاج العروس للزبيدي: 6/26، وفي المحكم، لابن سيده: 6/189، وفي المخصّص له أيضا: 1/291.

(6) لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (صدق).

8) ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ﴾: الإيمان: التَّصديقُ نفسُه، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يوسف: 17]، أي: بمُصَدِّق. ويُقال: لكلِّ واحد من الاعتقاد والقَول الصِّدق، والعمل الصَّالح: إيمان. قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ [البقرة: 143][1]

9) ﴿وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾: النَّصر: إعانة المَظلوم؛ نصَره على عَدُوِّهِ ينصُره، ونصَره ينصُره نصرًا[2]، قال ابن عبّاس: "ما بعث الله نبيّاً من الأنبياء إلّا أخذ عليه الميثاق لئن بعث الله محمّداً وهو حيّ ليؤمننَّ به ولينصُرَنّه، وأمرَهُ أن يأخذ الميثاق على أمّته".

10) ﴿ءَأَقْرَرْتُمْ﴾: الإقرارُ: إثباتُ الشَّيء، قال تعالى: ﴿وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الحَجّ: 5]، وقد يكون ذلك إثباتًا، إمَّا بالقلب، وإمَّا باللِّسان، وإمّا بهما، ويُضادُّ الإقرارَ الإنكارُ، وأمَّا الجُحودُ فإنَّما يُقال فيما يُنكَرُ باللِّسان دُون القَلبِ، قال: ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ [البقرة: 84][3].

11) ﴿إِصْرِى﴾: الإصرُ والأَصرُ: الثِّقلُ. والعَهدُ المُؤَكَّدُ الَّذي يُثبِّط ناقِضَه عَنِ الثَّواب والخَيرات. والجَميعُ آصارٌ[4]، "وانّما سمّي الْكتاب إصرًا، لأَنّ الإصر: الْعَهْد، قَالَ الله جلّ وَعزّ: ﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى﴾ أَي: عهدي، وَفِي الْكتاب مَا يَأْخُذهُ الْمُتَبَايعَانِ من الْعَهْد ويشترطانه، وَيجوز أَن يكون سُمّي إِصْرا، لِأَنَّهُ يأصر إِلى الْحقّ، أَي: يعْطف إِليه، مثل يأظر، وَمِنْه يُقَال: مَا بيني وَبَينه آصرة، أَي: عاطفة رحم ولا مودّة"[5].

12) ﴿فَٱشْهَدُوا۟﴾: الشُّهودُ والشَّهادةُ: الحضور مَعَ المُشاهدة، إمَّا بالبصر، وإمّا بالبصيرةِ، وقد يُقالُ للحضُور: مُفردًا، قال الله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [السّجدة: 6]، لكن الشُّهود بالحضور المُجرَّد أَولَى، والشَّهادة مع المُشاهدة أَولَى. والشَّاهدُ العَالِمُ الَّذي يُبَيِّنُ ما عَلِمَه[6]، والشَّهادة: قول صادر عن عِلم حصل بمشاهدة بصيرةٍ أو بصر.

(1) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات: (أمن)
(2) ابن منظور، لسان العرب: (نصر).
(3) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات: (قر).
(4) ابن عباد، المحيط، والجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات: (أصر).
(5) ابن قتيبة، غريب الحديث: 2/509.
(6) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (شهد).

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

عـهـد الـلـه في أزله للنّبيّين، أن يقرّوا بالإيمان بآخر المرسلين

أخذَ اللّه العَهد على النَّبيين واحدًا واحدًا، فيما ندبهم له، وفيما دعاهم إليه، وهو أن تتوحَّد في مجال الجهاد رايتهم، وألّا ينسخ بعضهم بعضًا أو ينعزل بعضهم عن بعض، فإذا جاءهم رسولٌ مصدّقٌ لما معهم، كان على كلِّ نبيٍّ أن يصدِّقه، ويؤمن به، وينصره فيما يدعو إليه؛ لأنّ نصرة هذا الرّسول نصرةٌ لهم جميعًا[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

تَعْيِينُ الْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾:

تَضْيِيعُ أَهْلِ الْكِتَابِ لِمِيثَاقِ اللهِ تَعَالَى

عُطِفَ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ﴾ على ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ﴾ [آل عمران: 80]، أي: ما أمركم الأنبياءُ بشيءٍ ممَّا تقوَّلتُم عليهم، وقد أمرُوكم بغير ذلك فأضعتُمُوهُ حين أخذَ اللّه ميثاقَهم ليُبَلِّغُوهُ إليكم، فالمعطوفُ هو ظرفُ (إذ) وما تعلَّقَ به.

ويجوزُ أن يتعلَّقَ ﴿وَإِذْ﴾ بقوله: ﴿ءَأَقْرَرْتُمْ﴾ مُقدَّمًا عليه، ويَصِحُّ أن تُجعَلَ ﴿وَإِذْ﴾ بمعنى زمان غير ظرفٍ، والتّقدير: واذكُر إذ أخذ اللّه ميثاق النَّبيّين، فالمقصود: الحكاية عن ذلك الزَّمان وما معه، فيكونُ ﴿قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ﴾ معطوفًا بحذف العاطف[2].

دِلَالَةُ إِسْنَادِ أَخْذِ الْمِيثَاقِ إِلَى اللهِ تَعَالَى فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾:

شَرَفُ الْمِيثَاقِ الَّذِي أَخَذَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَى النَّبِيِّينَ

عُبِّر عَن حُصول الميثاق بالأخذ في قول اللّه تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ إظهارًا له وتَمكِينًا منه تَمكُّن الآخذ من المأخوذ، وزِيدَ هذا التَّمكُّن قوَّة وشرفًا بإسناد الأخذ إلى الاسم الأحسن وما يدلُّ من صفات الجلال والجمال والكمال، ثمَّ زِيدَ

(1) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 1/509.

(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 5/338، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/463، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/235، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/289.

شرفًا بأنَّ المُعْطَى لهذا العَهدِ هُمُ النَّبيُّون، وهم أكرمُ البَشَرِ عند الله تعالى.

واختيرتْ صيغة جمع ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ - وهو جمع سلامةٍ - للدِّلالةِ على الشَّرف، وعُلُوِّ المكانة، ولمَّا كانتِ المواثيق والعُهود والعُقود يُطلَبُ فيها سلامة كُلّ أطرافها مِنَ العُيوب القادِحَة في الأهليّة؛ كان اختيار جمع السَّلامة مُشيرًا إلى هذه المعاني في الأنبياء جميعًا.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالْفِعْلِ ﴿أَخَذَ﴾ مَعَ الْمِيثَاقِ:

عَظَمَةُ الْمِيثَاقِ وَوُجُوبُ التَّمَسُّكِ بِهِ

النَّاظر في استخدام مادَّة (أخذ) في القرآن يجد أنَّها تُستعمل في الأمور العِظام، مثل: الهلاك والانتقام والعِقاب ونحو ذلك، وتُستعمل أيضًا في باب الالتزام بالعهد والتَّمسك به، وهذا ظاهرٌ في آيات القرآن الكريم؛ ففي القَهر والعَذاب قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: 102]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الأعراف: 130]، وقوله تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ [العنكبوت: 40]، وفي الالتزام بالعَهد والتَّمسك به قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأعراف: 172]، ومع بني إسرائيل قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [البقرة: 83]، وهذا ذُكِرَ في مَواضِع كثيرة، وهنا جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾.

فهذه المادّة تُستعمل في دلالة الالتزام والتَّمسك بالعَهد، وهذا هو المُراد في هذه الآية؛ لأنَّ الأخذ في اللُّغة حوزُ الشَّيء وتحصيلُه، وفي هذا تبرئة لساحة الأنبياء، فكأنَّهم هم الّذين حَرَصوا على هذا الميثاق والالتزام به، وما وقع من مُعارضات إنَّما كانت من أقوامهم.

الرَّدُّ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ فِي إِنْكَارِ نُبُوَّةِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ

سِرُّ اخْتِيَارِ الْفِعْلِ ﴿أَخَذَ﴾ بِصِيغَةِ الْمَاضِي:

عُبِّر بالفعل الماضي ﴿أَخَذَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ

ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ للدّلالة على تحقُّق الوقوع، بمعنى أنَّ هذا الميثاق، وما يتضمَّنُه من الإيمان بالنَّبيّ ﷺ، ونصرته، والإقرار بذلك؛ أمرٌ قدَّره الله أزلًا، وفي ذلك ردٌّ على أهل الكتاب الَّذين يُنكرون نبُوَّته ﷺ.

تَوْجِيهُ الْمُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ بَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ﴾ وَقَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾:

أُسنِدَ الأخذ إلى الاسم الأحسن ﴿ٱللَّهُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾؛ لأنَّ هذا الميثاق تكليفيٌّ، على الأنبياءِ جميعًا الالتزامُ والوفاء به؛ لذا أُضْفِيَ عليه المهابة والجلال بإسناده إلى الاسم الأحسن ﴿ٱللَّهُ﴾، وفي هذا إعلاءٌ لقَدره ﷻ، بخلاف آية الأعراف؛ وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف: 172] فهو في أمر الرُّبوبيّة، وهو مقام الإنعام؛ لذا جاء الإسناد لاسم الله (الرَّبّ)؛ إذ هو دالٌّ على التَّفضُّل والإنعام على خلقه، مع ملاحظة أنَّه لم يُصرَّحْ بلفظ الميثاق في الآية.

الْإِعْـلَامُ بِعُلُوِّ قَدْرِ النَّبِيِّ ﷺ

عِلَّةُ اخْتِيَارِ لَفْظِ (الْمِيثَاقِ) دُونَ (الْعَهْدِ):

اختير لفظُ الميثاق في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ دون العهد؛ لأنَّ الميثاق في دلالة الالتزام أقوى من العَهد والعَقد؛ لذلك استعمله القرآن الكريم في الزَّواج وسمَّاه ميثاقًا غليظًا، وفي تشريعات بني إسرائيل قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة: 83]، وفي الحفاظ على حرمة الدّماء والأوطان قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ﴾ [البقرة: 85]؛ ولذا اختيرَ لفظُ الميثاق لِلْإِيمَان بالنَّبيّ ﷺ ولِنصرته من جميع الأنبياء وأقوامهم.

قُـــوَّةُ دِلَالَـــةِ الْمِيثَاقِ عَلَى لُزُومِ التَّمَسُّكِ بِهِ

نُكْتَةُ تَنْكِيرِ ﴿رَسُولٌ﴾ من قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾:

نُكِّر ﴿رَسُولٌ﴾ من قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ

عُلُوُّ مَنْزِلَةِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ

لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ مع أنَّ المرادَ به معيَّنٌ وهو نبيُّنَا محمَّد ﷺ؛ وذلك إيماءٌ إلى تعظيم قدره وتفخيم مكانتِهِ ورِفعة شأنه عليه السلام.

بَلَاغَةُ الْحَذْفِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم﴾:

الْمِيثَاقُ الَّذِي أَخَذَهُ اللهُ تَعَالَى مُلْزِمٌ لِأَتْبَاعِ الْأَنْبِيَاءِ

في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ إيجازُ حذفٍ، وذلك على رأي من يقول: إنَّ الميثاق أُخذَ على أُمم الأنبياء عليهم السلام، فيكون قد حُذفَ المضاف وأُقيمَ المضاف إليه مقامه، فيكون التَّقدير: وإذ أخذ اللهُ ميثاقَ أُمم النَّبيِّين أو أتباعهم.

وكذلك يتعيَّنُ تقدير محذوفٍ آخر في هذا النَّظم الكريم في قوله: ﴿لَمَآ ءَاتَيْتُكُم﴾، والتَّقدير: وإذ أخَذَ الله ميثاقَ النَّبيِّين لتُبَلِّغُنَّ النَّاس ما آتَيتُكُم مِنَ كتاب وحكمة؛ وذلك لدلالة الكلام عليه؛ لأنَّ لامَ القسم إنَّما تقعُ على الفعل، فلمَّا دَلَّت هذه اللَّام على هذا الفعل؛ حُذِفَ اختصارًا، وهذا من بديع الإيجاز[1].

نُكْتَةُ تَخْصِيصِ ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ بِالذِّكْرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ مَعَ أَنَّ الْمُرَادَ أُمَمُهُمْ:

تَعَدُّدُ الْمَعَانِي إِثْرَاءٌ لِلنَّصِّ الْقُرْآنِيِّ

اختُلِفَ في علَّةِ تخصيص النَّبيِّين بالذِّكرِ في قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ مع أنَّ المرادَ أُمَمُهُمْ، وذلك على أقوال:

أحدها: أنَّ المعنى على ظاهره، فإذا كان هذا حُكم الأنبياء عليهم السلام؛ كانَتِ الأممُ بذلك أَوْلَى وأَحرَى، فيكون هذا من التَّنبيه بالأعلى عن الأدنى.

ثانيها: أنَّ معناه أخذُ الميثاق مِنَ النَّبيين وأمَمِهم، واستُغنيَ بذكر النَّبيِّين عَن ذِكر أُمَمِهم، فيكون هذا من باب الاكتفاء؛ وهو أن يستدعيَ المقامُ ذكرَ شيئينِ فيُكتفى بأحدهما عن الآخر.

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/277، والدّريهم، سورة آل عمران دراسة بلاغيّة: 1/192.

ثالثها: أنَّ إضافةَ الميثاق إلى النَّبيّين إضافةٌ إلى الفاعل، والمعنى: وإذ أخَذَ اللّه الميثاقَ الَّذي وثَّقه الأنبياءُ على أممهم.

رَابِعُها: أنَّ المرادَ أولادُ النَّبيّين على حَذف المضاف، وهم بنو إسرائيل: وسَمَّاهم نَبيّين تهكُّمًا بهم؛ لأنَّهم كانوا يقولون: نحن أَوْلَى بالنُّبوَّة مِن محمَّد ﷺ؛ لأنَّا أهلُ الكتاب، والنَّبيُّون كانوا منَّا[1].

تَوْجِيهُ الْقِرَاءَاتِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَمَآ ءَاتَيْتُكُم﴾:

التَّكَامُلُ الدَّلَالِيُّ لِلْقِرَاءَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ

قوله تعالى: ﴿لَمَآ﴾ يُقرَأ بكسرِ اللَّام - وهي قراءة حمزةَ -، وفَتحِها - وهي قراءة الباقين -[2]؛ فوجه كسرِهَا: كونُهَا حرفًا جارًّا، وتكون (مَا) موصولةً بمعنى الَّذي، والمعنى: لِلَّذي آتيتُكم، ووجْهُ الفَتْحِ: كونُهَا لامَ تأكيدٍ، وتكونُ (مَا) صِلَةً، كقوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 159]، أو تكون اللَّامُ لام القسمِ و(ما) بعدها شرطيَّة، وجوابها: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ءَاتَيْتُكُم﴾؛ يُقرَأ بالنُّون والألف ﴿ءَاتَيْنَـٰكُم﴾، وبالتَّاء من غير ألف ﴿ءَاتَيْتُكُم﴾[3]، فوجهُ الأوَّلِ وهو من قرأ ﴿ءَاتَيْنَـٰكُم﴾: أنَّ اللّه تعالى أخبر عَن نفسه بنون العظمَةِ، ووجهُ الآخر وهو من قرأ ﴿ءَاتَيْتُكُم﴾: أنَّه أُتِيَ بالكلام على ما يُوجِبه الإخبار عَنِ المتكلِّم إذا أُخبر بفعله عَن نَفسه، فهذا نظيرُ قوله تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا﴾ [الحجّ: 45]، فقد قرأها بالنُّونِ الجمهورُ، وقرأ أبو عمرو ويعقوب ﴿أَهْلَكْتُهَا﴾ بالتَّاء، والخَبران باللَّفظين عنِ اللّه[4] ﷻ.

بَلَاغَةُ الِالْتِفَاتِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ءَاتَيْتُكُم﴾، و﴿ءَاتَيْنَـٰكُم﴾:

أَثَرُ الْقِرَاءَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ فِي ثَرَاءِ الْمَعْنَى

تعدّدتِ القراءات في قوله تعالى: ﴿ءَاتَيْتُكُم﴾، أو ﴿ءَاتَيْنَـٰكُم﴾ على النَّحو المتقدِّم بيانُهُ، وعلى كلتا القراءتين الْتِفاتَانِ.

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 2/682، وابن عرفة: تفسير ابن عرفة: 1/377، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/53.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/241.
(3) ابن الجزري، النشر: 2/241.
(4) ابن الجزري، النشر: 2/327.

أحدهما: الالتفاتُ مِنَ الغَيبة إلى التَّكلُّم في قوله: (آتينا) أو (آتَيْتُ)؛ وذلك للتَّصريحِ بالاسم الأحسن (الله) في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ﴾، والاسمُ الظَّاهرُ يجري مجرى الغائبِ.

والآخر: الالتفاتُ من الغَيبَة إلى الخطاب في استعمال ضمير الخطابِ (كُمْ) من قوله: ﴿ءَاتَيْنَـٰكُم﴾ أو ﴿ءَاتَيْتُكُم﴾؛ وذلك للتَّصريح بالاسمِ الظَّاهرِ؛ وهو ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾.

لو جرى على مُقتَضى تقدُّم الاسم الأحسن ﴿ٱللَّهُ﴾ و﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾؛ لكان النَّظْمُ القرآنيُّ: وإذ أَخَذَ الله ميثاقَ النَّبيِّين لما آتاهُم مِن كتاب.

وذهب بعض أهل العلم إلى أنَّ مثلَ هذا لا يدخُلُ تحت مسمَّى الالتفات، وإنَّما هو حكايةُ الحالِ، كقولِكَ: حلَف زيدٌ ليَفعَلَنَّ ولأَفعَلَنَّ؛ فالغَيبة مراعاة لتَقَدُّم الاسم الظَّاهر، والتَّكلُّم حكاية لكلام الحَالف، والآيةُ الكريمة من هذا[1].

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالْإِيتَاءِ دُونَ الْإِعْطَاءِ فِي قوله: ﴿لَمَآ ءَاتَيْتُكُم﴾:

عِـظَـمُ شَـأْنِ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ

جاء التَّعبير بالإيتاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ﴾؛ لأنَّ الإيتاء لا يكون إلَّا في الشَّيء العظيم، مثل القرآن والمُلك والحُكم والنبوَّة، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ [الحجر: 87]، وقال سبحانه: ﴿تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ﴾ [آل عمران: 26]، وقال ﷻ في حقِّ داود عليه السلام: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ [البقرة: 251]، كلُّ هذه المعاني تكون مع الإيتاء الَّذي ليس للعَبد فيه دخلٌ ولا اجتهاد، إنَّما هو فضلٌ خالص لله تعالى على من يختاره لرسالته، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [الحج: 75]، وقال لموسى عليه السلام: ﴿قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى﴾ [الأعراف: 144].

أمَّا الإعطاء؛ فهو فِعلٌ له مقابل، أعطاني فأعطيته، ويكون في الشَّيء القليل، قال تعالى: ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾﴾ [النجم: 34]،

(1) السّمين، الدُّرّ المصون: 3/293، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/378.

وقد يَردُ العطاء مُفيدًا للكثرة كما في قوله: ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ۝٢٠﴾ [الإسراء: 20]، وقد يَرد العطاء كُرهًا كما في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ۝٢٩﴾ [التّوبة: 29].

ولذا آثرَ القرآن الكريمُ التَّعبيرَ بفعل الإيتاء؛ لأنَّ المقام هنا يتعلَّق بالكتاب والحكمة، وهما من الأمور العِظَام.

سِرُّ تَقْدِيمِ الْكِتَابِ عَلَى الْحِكْمَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ﴾:

تَعَلُّقُ الْحِكْمَةِ بِالْكِتَابِ مِنْ جِهَةِ الْفَهْمِ وَمَعْرِفَةِ الْأَحْكَامِ

النَّاظرُ في آيات القرآن الكريم يجدُ أنَّ الحكمةَ تُذكَرُ بعد الكتاب، كما في قول الله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ﴾ [البقرة: 129]، وقال تعالى: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ [آل عمران: 164]، إلى غير ذلك من الآيات، فقد جاءتِ الحكمة بعد الكتاب؛ وذلك لتعلُّقِهَا به من جهةِ فهمه، ومعرفةِ أحكامه، وما فيه من عِظات وعِبَر.

عِلَّةُ التَّعْبِيرِ بِالْفِعْلِ ﴿جَآءَكُمۡ﴾ دُونَ (أَتَاكُمْ):

مَشَقَّةُ الْعُدُولِ عَنِ الْإِلْفِ

ذهبَ بعضُ العلماء إلى التَّفريق بين (جاء) و(أتى)، فقد قال الزَّركشيّ: إنَّ (جاء) تُقال في الجواهر والأعيان، و(أتى) في المعاني والأزمان[1]، وأيضًا إنّ (أتى) أخفُّ من (جاء)[2]؛ لذلك يمكن القول: إنّ التَّعبير بالمجيء في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ﴾ مُناسب لحال أمم الأنبياء في اتّباع النَّبيّ ﷺ، إذ إنّهم أَلفوا اتِّباع أنبيائهم وكتبهم، فكانت دعوتهم للإيمان بالنَّبيّ ﷺ وتَرْكِ ما أَلِفوه أمرًا شاقًّا عليهم، وهذا ما يشير إليه لفظُ المجيء.

(1) هذا الفرقُ يردُّه مواضعُ من القرآن الكريم.
(2) الزركشي، البرهان: 4/80.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِلَفْظِ ﴿رَسُولٌ﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾:

هَيْمَنَةُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ عَلَى الْكُتُبِ السَّابِقَةِ

عُبِّر بلفظ ﴿رَسُولٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ مع أنَّ السِّياقَ في ذكر النَّبيِّين؛ وذلك للإشارة إلى عُلُوِّ مكانة الرَّسول ﷺ؛ لأنَّ مقام الرّسالة أعلى من مقام النُّبوَّة، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الكتاب المُنْزَلَ عليه كتابٌ مستقلٌّ مُهَيمِنٌ على الكُتب السَّابقة، وليس تابعًا لها.

فَائِدَةُ وَصْفِ الرَّسُولِ بِكَوْنِهِ مُصَدِّقًا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾:

اتِّفَاقُ الْكُتُبِ الإِلَهِيَّةِ فِي التَّوْحِيدِ وَالنُّبُوَّاتِ وَأُصُولِ الشَّرَائِعِ

وصف النَّبيِّ ﷺ بقوله تعالى: ﴿مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾ يُشْعِرُ أنَّ ما جاءَ به الرَّسول ﷺ موافقٌ لأصلِ التَّوراة والإنجيل قبل تحريفِهِمَا، ولا يَرِدُ على هذا أنَّ هذه الكُتُبَ تخالفُ تشريعاتُهَا تشريعاتِ القرآن الكريم؛ لأنَّ المُرادَ بالموافقة: الموافقةُ في التَّوحيد، والنُّبُوَّات، وأصول الشَّرائع، بخلاف تفاصيل الأحكام.

وأيضًا؛ فإنَّ المُرادَ بقوله: ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾ هو محمَّدٌ ﷺ، والمُرادُ بكونه مُصدِّقًا لما معهم: كونُ وَصْفِهِ وكَيفيَّةِ أحوالِهِ مذكورَيْنِ في التَّوراة والإنجيل، فلمَّا ظهر على أحوالٍ مُطابقةٍ لِما كان مَذكورًا في تلك الكتب؛ كانَ نفسُ مجيئِهِ تصديقًا لِما كان معهم، فهذا هو المُرادُ بكونِه مُصدِّقًا لما معهم[1].

دِلَالَةُ الْمَعِيَّةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لِّمَا مَعَكُمْ﴾:

الْعَوَامُّ تَابِعُونَ لِعُلَمَائِهِمْ

دَلَّت المعيَّة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾ على أنَّ سياق الكلام عن علماء أهل الكتاب؛ لأنَّهم هم مَنْ يصطحبُ العِلم بحيث تصحُّ معيَّتُهم له، بخلاف العَوامِّ منهم، فهم تَبَعٌ لعلمائهم.

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/277.

دِلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِالْفِعْلِ الْمُضَارِعِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥٓ﴾:

عَالَمِيَّةُ دِينِ الْإِسْلَامِ؛ لِكَوْنِهِ خَاتِمَ الرِّسَالَاتِ

التَّعبير بالفعل المضارع ﴿لَتُؤْمِنُنَّ﴾ و﴿وَلَتَنصُرُنَّهُۥٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥٓ﴾ يشير إلى دوام الإقرارِ والتَّصديق بنبوَّته ﷺ وبشرعه، فليس الأمر مقصورًا على زمانٍ دون زمانٍ أو مكانٍ دون مكانٍ، فكلُّ أتباع الأنبياء عليهم أن يؤمنوا به ﷺ، وفي هذا إشارة إلى عالميَّة دين الإسلامِ وأنَّه خاتم الرِّسالات.

دِلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَتَنصُرُنَّهُۥٓ﴾:

طَرِيقُ الدَّعْوَةِ شَاقٌّ لِوُجُودِ الْمُعَارِضِ الْمُعَانِدِ

التَّعبير بالنَّصْرِ في قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥٓ﴾ إشارةٌ إلى وجود من يُخالف النَّبيّ ﷺ في قبول دعوته، بل ويُعانده ويحاربه، فيُطلَبُ عندئذٍ نُصْرَتُهُ ﷺ.

عِلَّةُ الْوَصْلِ وَالْفَصْلِ فِي قَوْلِهِ: ﴿قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾:

دِقَّةُ اسْتِعْمَالِ الْحُرُوفِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، فَضْلًا عَمَّا فَوْقَ ذَلِكَ

وَقَعَ الوَصل بين ﴿ءَأَقْرَرْتُمْ﴾ و﴿أَخَذْتُمْ﴾؛ لما بينهما من التَّوسُّطِ بين الكمالين؛ لاتِّحادهما في الإنشائيَّة؛ لأنَّ قولَه: ﴿أَخَذْتُمْ﴾ واقعٌ في حيِّزِ الاستفهام، وبين الجملتين تناسبٌ في اللَّفْظِ والمعنى، فأمَّا اللَّفْظُ فكلتاهما جملةٌ فعليَّةٌ، وأمَّا المعنى فكلتا الجملتين استفهامٌ عن التزامِ ما وَجبَ عليهم شرعًا.

ووصلُ قوله: ﴿وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ بالواو؛ لكون الجملةِ حاليَّةً، فالواوُ واوُ الحالِ.

وأمَّا الفَصلُ؛ فوقعَ بين قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟﴾ وما قبلها؛ لِوقوعِها جوابًا عن سُؤالٍ نشأ عمَّا سَبَقَ، كأنَّه قيل: فماذا قالوا؟ فجاء الجوابُ، قالوا: أقرَرنا[1]، فبين الجملتينِ: شبه كمالِ الاتِّصالِ.

(1) الدّبل، دليل البلاغة القرآنيّة: 1/484.

دِلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِالْإِقْرَارِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ﴾:

الْمُبَالَغَةُ فِي أَخْذِ الْمِيثَاقِ لِلْإِيمَانِ بِالنَّبِيِّ ﷺ

في قوله تعالى: ﴿قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ﴾ بلغ معنى الإقرار مَبلغًا رَفيعًا؛ إذ صُرِّحَ بفعل الإقرار، ثُمَّ أُخذ الميثاق على هذا الإقرار، ثمَّ بشهادتهم عليه، وخِتامًا بشهادة اللّه رَبِّ العالمين على ما شَهِدوا به على أنفسهم، وبذلك يَنعَقِد لهذا الإقرار ما لم يَنعَقِد لغيره مِنَ التَّأكيد والتَّقرير.

ولم تكتفِ الآية بجملة المُؤكِّدات والمُقرّرات الّتي تَلَتِ الاستفهام، بل سَبقَته بمزيدٍ منها، كالميثاق الأوَّل، وهو في حُكم القَسَم، واللَّام في: ﴿لَمَآ ءَاتَيْتُكُم﴾ وهي مُوطِّئةٌ للقسم، واللَّام في ﴿لَتُؤْمِنُنَّ﴾ في جواب القَسَم[1].

فَائِدَةُ التَّوْكِيدِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ﴾:

تَلَازُمُ الْإِيمَانِ بِالنَّبِيِّ ﷺ وَنُصْرَتِهِ

أُكِّد الفعلان في قوله تعالى: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ﴾ بلام التَّوكيد ونُون التوكيد الثَّقيلة؛ تعظيمًا لشأن الإيمان بالنبي ﷺ ونصرته، وأنَّه لا يُستغنَى بأحدهما عن الآخر، فلا بدّ مع الإيمان به نصرتُهُ، ومع النُّصْرَةِ الإيمانُ به؛ إذ النُّصرة إذا كانت حميَّةً لقبيلةٍ عاريةً عن الإيمان به غيرُ نافعةٍ لصاحبها.

تَعْيِينُ الْمَقْصُودِ بِالْإِقْرَارِ فِي قَوْلِهِ: ﴿قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ﴾:

عُلُوُّ قَدْرِ النَّبِيِّ ﷺ

اختُلِفَ فِيمَن وُجِّهَ إليه الاستفهام بقوله: ﴿قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ﴾ بناءً على من أُخذ منهم الميثاق؛ فإذا كان من النّبيّين فهم المُقِرُّون بذلك الميثاق، وفي هذا دِلالةٌ على عُلُوِّ قَدرِهِ ﷺ، وإن كان الإقرار من الأُمم؛ فإنَّ المعنى: أنّ الأنبياء طلبوا مِن أقوامهم الإقرارَ بهذا الميثاق، وفي هذا أيضًا دِلالةٌ على شرف النَّبيّ ﷺ.

(1) أبو سمعان، التّراكيب النّحويّة، ص: 68.

فَائِدَةُ ذِكْرِ الْأَخْذِ بَعْدَ الْإِقْرَارِ:

الْإِقْرَارُ النَّافِعُ مَا اقْتَرَنَ بِهِ الِانْقِيَادُ بِالطَّاعَةِ

جاءَ ذِكرُ الأخذِ بعد ذكرِ الإقرار في قوله تعالى: ﴿قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ﴾؛ للدّلالة على القَبُول؛ لأنَّ الإقرار دالٌّ على القَبول القَلبيّ، وقد لا يكون فيه التزامٌ بما يقتضيه هذا الإقرار، فأراد القرآن أن يَجمع الإقرارَ القلبيّ والعملَ بما يُوجبُهُ الإقرارُ؛ فجاء بقوله ﴿وَأَخَذْتُمْ﴾؛ فإنَّه بمعنى القَبولِ والإذعانِ والانقياد بالطَّاعةِ، قال تعالى: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة: 48]، أي: يُقبل، وقوله تعالى: ﴿وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [التوبة: 104]، أي: يقبلها.

دِلَالَةُ الْجَمْعِ فِي قَوْلِهِ: ﴿قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى﴾:

أَصْـــلُ دَعْـــوَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَاحِدَةٌ

المتأمِّلُ في هذه الآية يجد فيها صورةَ استحضارِ الأنبياء جميعًا في مَشهدٍ واحدٍ، وهم يُقرُّون بالميثاق المأخوذ عليهم بالإيمان بالرَّسول ﷺ ونصرته، حتَّى كأَنَّ الجوابَ كان منهم جماعيًّا ﴿قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا﴾.

فَمَوكِب الرِّسالات واحدٌ، لا تخالُفَ بينها ولا تعانُدَ ولا تعارُض، وكلُّهم يدعو إلى الاستسلام لله بالتَّوحيدِ، والانقياد له بالطَّاعة، والبراءة من الشِّرْكِ وأهله.

نُكْتَةِ التَّعْبِيرِ عَنِ الْعَهْدِ بِالْإِصْرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى﴾:

الْجَنَّةُ مَحْفُوفَةٌ بِالْمَكَارِهِ

أصلُ الإصرِ: هو ما يلحق الإنسانَ من أجلِ الالْتِزَامِ بِهِ، فعُبِّرَ عن العهد بالإصر في قوله تعالى: ﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى﴾ لما فيه من المشقَّةِ.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِاسْمِ الْإِشَارَةِ ﴿ذَٰلِكُمْ﴾:

تَعْظِيمُ عَهْدِ اللهِ تَعَالَى وَتَفْخِيمُهُ

اسم الإشارة ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى﴾ موضوعٌ في الأصلِ للإشارة إلى البعيد، وفي استعماله مع الإصر - وهو العهدُ - إشعارٌ بعظمَتِه ومبالغةٌ في تفخيمه.

بَلَاغَةُ الِاكْتِفَاءِ فِي قَوْلِهِ: ﴿قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ﴾ إيجازٌ بالحذف، والمحذوفُ هنا جملةٌ، حُذِفَت لدلالة ما تَقَدَّمَ عليها؛ إذ التَّقدير: أَقرَرنَا وأَخَذنَا إصرَكَ على ذلك كلِّه[1]، وهذا الحذفُ على سبيل الاكتفاء، واسْتُغْنِيَ بالإقرار عن التَّصريح بأخذ الإصر وهو العهد؛ لأنَّ الأوَّلَ ملزومٌ للآخر، فالأصل فيمن يُقرُّ أن ينقادَ ويلتزمَ العهدَ.

الِانْقِيَادُ وَالْتِزَامُ الْعَهْدِ مِنْ لَوَازِمِ الْإِقْرَارِ

دِلَالَةُ الْأَمْرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾:

قال الرَّاغب: معنى: ﴿فَٱشۡهَدُواْ﴾: اعلَموا؛ فإنَّ الشَّهادةَ وَقت التَّحَمُّل هو العِلمُ، ووَقت الإقامة هو الإخبار[2].

وذكر ابنُ عطيَّة أنَّ ﴿فَٱشۡهَدُواْ﴾ يَحتمل مَعنيين:

أحدهما: فاشهَدوا على أمَمِكُم المؤمِنين بكم، وعلى أنفُسِكُم بالتزام هذا العهد.

والآخر: بُثُّوا الأمرَ عند أُمَمِكم واشهدُوا به.

فالقولُ الأوَّل: إيداعُ الشَّهادةِ واستِحفاظُها، والقولُ الآخر: هو الأمرُ بأدائِها، وهذا توكيدٌ عليهم، وتَحذيرٌ مِنَ الرُّجوع إذا عَلِموا بشهادة الله وشهادة بعضهم على بعض[3].

تَأْكِيدُ الشَّهَادَةِ وَتَعْظِيمُهَا أَمَارَةٌ عَلَى أَهَمِّيَّةِ الْمَشْهُودِ عَلَيْهِ

وفي قوله: ﴿فَٱشۡهَدُواْ﴾ ﴿ٱلشَّٰهِدِينَ﴾، جناسُ اشتقاقٍ أفاد التَّوكيدَ وتقويةَ الإلزام، ويحتَمِلُ تخريجُهُ على ردِّ العجُزِ على الصَّدْرِ أيضًا، ولا تنافيَ بينَ الأسلوبَيْن؛ لما عُلِمَ من أنَّ النِّكاتِ البلاغيَّةَ تتوارَدُ ولا تتزاحَمُ.

دِلَالَةُ الْمَعِيَّةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَأَنَا۠ مَعَكُم﴾ تَشريفٌ للقائم بالشَّهادة[4]، والمعنى: وأنا أيضًا على إقراركم ذلك وشهادتكم شاهدٌ.

التَّحْذِيرُ مِنْ كَتْمِ الشَّهَادَةِ أَوْ تَحْرِيفِهَا

(1) الدّريهم، سورة آل عمران دراسة بلاغيّة: 1/192.

(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 2/684.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/380، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/466، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 4/166.

(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/378.

وإدخالُ (مع) على المُخاطَبين؛ لكونِهم المُباشِرين للشَّهادة حقيقةً، وفي ذلكَ تأكيدٌ وتحذيرٌ[1].

مُنَاسَبَةُ خَتْمِ الْآيَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾:

اختُتِمَتِ الآيةُ بخاتمةٍ بديعةٍ اشتَمَلَت على التَّوكيد وتَقويَة الإلزام، ممَّا يدُلُّ على مكانةِ النَّبيّ ﷺ عند ربِّه حتَّى أخذَ على تلك الأمم هذه المواثيق المُغلّظة، وأشهَدَ نفسَه وغيرَه عليها سبحانه وتعالى.

تَغْلِيظُ اللهِ تَعَالَى النَّاسَ الشَّهَادَةَ فِي مُعَامَلَاتِهِمْ

وإشْهَاد الله تعالى الخَلْقَ يُرادُ به تعليمُ النَّاس هذا الأدبَ في مُعاملاتِهم، فهو مع غِنَاهُ عَن هذا الأمرِ - لكونه لا تخفى عليه خافية - إلَّا أنَّه يُشْهِدُ، وفيه إشعارٌ بأهمية الشَّهادَةِ في حفظِ الحقوق؛ إذ إنَّ مِن جملة أسباب ضياعِهَا تَرْكَ هذا الأدب مِنَ المعاملات.

وفي كَوْنِ الشُّهودِ في الآيةِ يُرادُ بهم أممُ النَّبيِّين يُدلُّ على إقامةِ الحُجَّة على أنفُسهم[2].

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِالْجَمْعِ ﴿ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾:

تَعَدُّدُ الشُّهُودِ دَلِيلٌ عَلَى عُلُوِّ الْمَشْهُودِ لَهُ

جاء التَّعبير في إثباتِ الشَّهادة لنُبُوَّة النَّبيّ ﷺ بأسلوب الجمع في قوله: ﴿وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾؛ لأنّ الملائكة شهدت لرسول الله ﷺ بالنُّبوَّة، والأرضُ شَهِدَت له كذلك، الجنُّ أيضًا شَهِدَت بذلك؛ فكلُّ الأجناس شَهِدَت، وفوق ذلك شَهِدَ الله سبحانه وتعالى على رسالة خليلِه ﷺ.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الأخذ والتّناول:

التناولُ "يَقتضي أَخْذَ شَيءٍ يُستَعمل في أمرٍ مِنَ الأمور، ولهذا لا يُستَعمَل (تناول) في فعل الله تعالى، فيُقالُ: تناول زيدًا، كما

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/54، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 4/166.
(2) الدّريهم، سورة آل عمران دراسة بلاغيّة: 1/192.

تقول: أخذ زيدًا، وقال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، ولم يُقَل: تناولها. وقيل: التَّناول أَخذُ القليل المَقصود إليه، ولهذا لا يُقال: تناولت كذا من غير قَصدٍ إليه، ويُقال: أَخَذتُه من غير قَصدٍ"[1].

العهد والميثاق:

الميثاقُ توكيدُ العَهد، مِن قولك: أوثَقتُ الشَّيء إذا أحكَمتُ شَدّهُ، وقال بَعضُهم: العَهدُ يكون حالًا مِنَ المُتعاهدين، والميثاقُ يكونُ مِن أحَدهما[2]، وفي كتاب الأفعال لابن القطّاع، أنّ الفطرة"هي الإقرار بالله، وهو العهد والميثاق الّذي أخذه تعالى عليهم، حين أخرجهم من صلب آدم، أمثال الذّرّ، وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى"[3].

الإقرار والاعتراف:

الإقرارُ إخبارٌ عَن شيءٍ ماضٍ، أمَّا الاعتراف فمثل الإقرار، إلَّا أنَّه يقتضي تَعريفَ صاحِبه الغَير، أنَّه قد التزمَ ما اعترفَ به، وأصلُهُ مِنَ المَعرفة، وأصلُ الإقرار مِنَ التَّقرير وهو تحصِيل ما لم يُصرّح به القَول؛ ولهذا اختار أصحابُ الشُّروط: أقَرَّ به، ولم يختاروا: اعترف به[4]، قال الكفويّ في معنى قوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: 172]: "ومن معاني الاستفهام التّقرير: أي حمل المخاطب على الإقرار والاعتراف، بأمر قد استقرّ عنده، وحقيقة استفهام التّقرير إنكار، والإنكار نفيٌ، وقد دخل على النّفي، ونفي النّفي إثباتٌ"[5]، ويسمّى استفهاما تقريريّا.

الإقرار والشّهادة:

الشَّهادةُ إقرارٌ معَ العِلم وثبات اليقين، والإقرارُ قد يَنفَكُّ مِن ذلك؛ ولهذا كذَّب الله تعالى الكفَّار في قولهم: ﴿قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: 1]، ولو قالوا: نُقِرُّ إنَّك لَرسولُ الله لم يكذبوا[6].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 139.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 57.
(3) ابن القَطّاع، كتاب الأفعال: 2/457.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 48.
(5) الكفويّ، الكليات، ص: 98.
(6) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/249.

العلم والشّهادة:

الشّهادةُ "خبَرٌ قاطع. تقول منه: شَهِد الرّجل على كذا، وربّما قالوا شَهْدَ الرَجُلُ، بسكون الهاء للتّخفيف، عن الأخفش، وقولهم: اشهد بكذا، أي احلف"[1]، والشّهادة أخصُّ مِنَ العِلم، وذلك أنَّها بوجود الأشياء لا مِن قِبل غَيرها، والشَّاهدُ نقيضُ الغائِب في المعنى؛ ولذا سُمِّي ما يُدرَك بالحَواسّ ويُعلَم ضَرورَةً شاهدًا، وسُمِّي ما يُعلَم بشَيء غيره وهو الدّلالة، غائبًا كالحياة والقُدرَة، وسُمِّيَ القديم شاهدًا لكلِّ نجوى؛ لأنَّهُ يَعلم الموجودات جميعها بذاتِهِ، فالشَّهادة عِلمٌ يتناول الموجود، والعِلم يتناوَل الموجود والمعدوم[2].

(1) الجوهريّ، الصّحاح: 2/494.

(2) العسكريّ، الفروقُ اللّغويّة، ص: 95 - 96.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس، سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 5 ، 800 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-57-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 5 : سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-57-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1170694 بتاريخ 2023/03/14م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»